المركز والهامش: صراع الأنساق والثورة على المراكز

Centre and Margin: The Struggle of Forms and the Revolution over the Centres

ط.د/ عبير عقون

المركز الجامعي مغنية (الجزائر)

abireabire002@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/12/30 **تاريخ القبول: 2022/01/09**

ملخص:

يروم البحث المعنون بـ:"المركز والهامش: صراع الأنساق والثورة على المراكز" إلى التوقف عند أهم محطات جدلية المركز والهامش في ما بعد الحداثة مع الفيلسوف "فريديريك نيتشه" وموت المتعاليات، ومع الفيلسوف "سيغموند فرويد" بانتقاله من سلطة الشعور إلى سلطة اللاشعور في الدراسات النفسية، ثم "كارل ماركس" مع قلبه الجدل في الفلسفة الماركسية، بعد التطرق إلى أهم مراحل انتقال الفكر النقدي من الحداثة إلى ما بعد الحداثة الأمر الذي يقضي التوقف عند لحظة ميلاد المركزيات مع الحداثة ثم المرور إلى الأزمة التي اعتلتها وصولا إلى ما بعد الحداثة ومركزة الهوامش.

الكلمات المفتاحية: المركز، الهامش، الحداثة، ما بعد الحداثة.

***Abstract*:**

The research entitled: “The Centre and the Margin: The Struggle of Forms and .the Revolution over Centres” aims to stand at the most important stages of the dialectic of centre and margin in postmodernism with the philosopher“ Friedrich Nietzsche” and the death of transcendentalism, and with the philosopher “Sigmund Freud” with his transition from the power of the feeling to the power of the unconscious in Psychological studies, then “Karl Marx” with his heart of controversy in Marxist philosophy. After addressing the most important stages of the transition of critical thought from modernity to postmodernity, it is required to consider the birth of centralisms with modernity and then passing to the crisis that afflicted it until postmodernity and the centralization of margins .

Keywords: centre, margin, modernity, postmodernism.

مقدمة

تعتبر الدراسات الثقافية ثورة على النظرية الأدبية التقليدية بإعادة استقراء الثقافة من وجهة نظر جديدة تمركز الهامش وتهمش المركز من خلال لفت الانتباه إلى كل ما هو مستبعد غير مؤسساتي، أين اتسعت دائرة طرحها لتشمل الدراسات الماركسية ودراسات ما بعد الكولونيالية ناهيك عن أهم المقولات التي انجرت عن تيار ما بعد الحداثة؛ التي ترى أن الإنسان لا يستطيع فهم العالم بعقله لأن العالم معقد، فجرى في هذه الدراسات النقدية الثقافية فكفكة الخطاب وتعرية الأنساق المضمرة التي تتوارى وراء الجماليات.

اختيار المنهج الملائم لدراسة الظاهرة المراد تحليلها أمر بالغ الأهمية حيث يكشف المنهج الظاهرة بأبعادها الواقعية وخصائصها ويتابع تطورها ومن أجل هذه الدراسة اعتمدنا فسيفساء من المناهج ذلك أن الظاهرة اقتضت عدم سرد أحداثها فقط بل ضرورة تحليلها وتفسيرها بالعودة إلى واقعها التاريخي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وكذا النفسي قصد الوصول إلى معرفة حاضرها على اعتبار أن الواقع هو نتاج لتراكمات سابقة، وعلى هذا الأساس يمكن القول أن الدراسة تتطلب الرجوع إلى المنهج التاريخي، الاجتماعي ناهيك عن المنهج النفسي بداءة بتركيزنا على الجانب اللاواعي.

ماهي المنطلقات الفكرية والنقدية التي انبنى عليها الفكر ما بعد الحداثي؟ وهل أفلح الهامش في تجاوز المركز؟

أولا. فشل المشروع الحداثي

1. ميلاد الحداثة

لابد من الاعتراف أن الغرب أسس لمشروعه الفكري انطلاقا من الشرق فوقف عند محطات كثيرة، كان من أهمها **مشروع الحداثة** الذي أثار العديد من التساؤلات في الأوساط الفكرية والثقافية وكذا الإعلامية.

يذهب "آلان تورين" Alain Touraine إلى أنّ "الحداثة هي تعبير عن عصر يتجه نحو المستقبل بتحطيم العلاقات الاجتماعية والمشاعر الاعتقادات التي تندرج تحت مسمى التقليد بحكم العقل"[(1)].

إن الحداثة هي ثورة كوبرنيكية على كل ماله علاقة بالماضي باعتباره عتيق بالمعتقدات القديمة، هي ثروة على الأنظمة الكنسية التي ورثتها أوروبا في عصر القرون الوسطى، على إثر انكشاف العالم الجديد والنهضة، المتمثلة في ازدهار الفنون والعلوم والآداب عبر استعادة فكر اليونان وروما القديمة، وكذا الإصلاح الديني البروتيستاتي الناتج عن الصراع الرهيب بين الكاثوليكية والبروتستانتية، مع كل من "لوثر" Luther،"كالفن" Calvin ، في أواخر القرن 15 و بداية القرن 16، إلى جانب فلسفة الأنوار[2] إذن ما هي فلسفة الأنوار؟.

يجيب "كانط" Kant هي: "عدم قدرة المرء على استخدام فكره في الأمور دون إشراف الغير عليه، مع وقوع مسؤولية هذا القصور عليه هو، لا على هذا الغير"[3].

باختصار هي العمل على الخروج من التبعية، التي كانت بوادره خلال القرن 18 في فرنسا على يد "مونتيسكو" Montesquieu و"فولتير" Francois والموسوعيين من أمثال "ديدرو" Diderot و"المبير" Ampere،...، وغيرهما التي انتشرت فيما بعد ألمانيا مع "كانط" Kant وفي إنجلترا مع "لوك" Luca و"هيوم" Hume وهي عبارة عن حركة سياسية، اجتماعية، فلسفية وثقافية من أجل وضع حد لهيمنة المنظور الديني، الذي تغيرت مهنته من الوظيفة الأخروية إلى دين اجتماعي يعمل على حل المشكلات الاقتصادية وتطوير الخدمات الاجتماعية، إذ كان يرى رواد وفلاسفة هذه الحركة أن مهمتهم الأساسية هي قيادة العالم نحو التطور والحداثة وترك الأفكار والتقاليد الثقافية والدينية اللاعقلانية التي كانت سائدة ضمن ما أُطلق عليه اسم "العصور المظلمة". لكن السؤال الذي يطرح نفسه في مثل هذا المفهوم للحداثة القائم على نبذ الماضي والتراث، هل الغرب عندما أسس لمشروعها الفكري الحداثي أسس له من خلال إحداث القطيعة الإبستمية مع ذلك التراث؛ الذي يشكل جزءا من الذات والهوية؟، أم أنه أحدث قراءة انتقائية لذلك التراث إيماناً منه بأن لا أمة بلا ماضي؟.

ارتكزت الحداثة إلى جانب النزعة التاريخية على الميتافيزيقيا من "حيث أنها تمثل تصورا للأفكار الموضوعية العقلانية التي تتصل بالمفهوم الديني للروح والله؛ الذي يظل خلف الكون ويعبر عن ذاته داخل هذا الكون"[4].

الأخذ بالبعد التاريخي والتراكمي في مشروع الحداثة كأساس من الأسس التي قام عليها المشروع في حقيقة الأمر إلا انتصار وعودة إلى ينابيع الماضي، وعليه هي لم تقطع صلتها بالتراث، وإنما اشتغلت عليه بطريقة نقدية ممنهجة إيمانا منها بأنّ **التحديث** لا يكون أن يقطع الصلة مع ذلك الماضي، بل هو ميثاق عقد بين الأصالة والتحديث بين الماضي والحاضر (فهم الحاضر بناءاً على قراءة الماضي).

إذن لما استندت إلى النزعة التاريخية والميتافيزيقيا اشتغلت كذلك على مركزة الذات الإنسانية في عملها التفكيري المتواصل، "انبنت على الوعي بالذات، عندما حددت نظرة الذات العاقلة إلى نفسها، ذاتيتها الأولية المركزية (...) وتحويل الذوات الأخرى إلى مواضيع يتسلط عليها العقل العلمي"[5].

انبثق على إثر هذه الإشكالية "ديكارت" بمقولته الشهيرة "أنا أفكر إذن أنا موجود" والأعمال النقدية لكل من "هيوم" Hume و"كانط" Kant التي تقر بكل ما هو متجانس وسوي يستجيب للقواعد والقوانين، هذه النزعة الذاتية التي ميزتها عن النزعة الموضوعية لجل الفلسفات السابقة، ذلك أن قيام الدولة الحديثة قد جر إلى العقلية الحديثة، والتي تركز هذه الأخيرة على ما يعرف بمبدأ **العقلانية الصارمة**، فصرامة العقل القائم الأول للتحولات العميقة والقاطعة في كل الميادين اللسانية والفكرية، لمعرفة تجليات الحقيقة بصورة نهائية ودائمة، من أجل إقصاء الخيال وكل ما هو غير متجانس وغير سوي ولا يمتثل للقواعد، لضمان عدم الوقوع في الخطأ، كان متزامنا مع انحسار ظاهرة الإقطاع ولاقتصاد الزراعي السابق، الذي أنتج حضارات زراعية غير فعالة، وبروز شمس الرأسمالية التجارية بوصفها نظام اقتصادي والطبقية البرجوازية.

كل هذا عمل على بروز وجود جديد للإنسان يقضي سيطرته الكلية على الطبيعة وقواعدها، ليصبح مركزا للحياة وهدفا وغاية لها بالانتصار إلى العقل؛ الذي يمثل النواة التي تدور حولها كل الآراء والتصورات ضمن المشروع الفكري، الفلسفي، والسياسي...

إنّ اتحاد أسس الحداثة الحتمية في التاريخ والطبيعة، الذاتية، العقل، الإنسان، الميتافيزيقيا .. سيحقق بالتأكيد القضايا التي تهدف إلى إرسائها، أهمها وحدة العقل مع "هابرماس" الذي "يرى أنها تكمن في الممارسة التواصلية لإيجاد أرضية العقل الكوني تجنبا لاعتبارات قد تجعله ينشطر"[6].

انطلاقا من الفعل التواصلي يصبح العقل محور الفلسفة استنادا إلى مرجعية مستمدة من مدى اندماج هذه الفلسفة بالمعرفة في شكل كلمة أو فعل، مع رصد جلّ التعديلات في مختلف المجالات المنطقية، اللغوية، الأخلاقية، والعلمية دون أن تفقد هويتها في الختام، وبها تكن نظرية الحاجة مهمة تتمحور في بناء الشروط النفعية الشكلية التي لها علاقة بسلوك العقل، من شأنه أن يشكل أفق يتماشى مع التجدد والتقدم الدائمين؛ وبالتالي العمل على إعادة بناء العقلانية الحديثة عبر عقلانية عملياتية تستند إلى **العقل التواصلي**، القائم على تحديد العلائق بين النظرية والواقع، وبين النظرية والتاريخ، وكذا بين العلم والعمل، وبالتالي بلورة عقل كوني بعيد عن الاعتبارات التي قد تضعه تحت خطر الانشطار إلى: عقل إسلامي، عقل مسيحي، عقل عربي عقل غربي، عقل صيني ...، فبالرغم من أن المجتمعات تختلف فيما بينها في حركتها وثقافتها وطموحها... على الإنسان أن يدرك ضرورة التآنس والتعايش، من أجل السعادة البشرية الكامنة في الاتفاق، بمنح منطق الخطاب بين المتواصلين بعداً أخلاقياً لإقامة جسور التفاهم والتحاور بعيدا عن التصور الأحادي، لينزع الفرد ذاتيته ويقوم بإدماجها في المجهود الجماعي الذي يقوم على التواصل العقلي.

2. الحداثة في أزمة

لكن، هل استطاعت الحداثة فعلا أن تؤسس لذلك العقل الكوني، العقل التواصلي كما أسماه "يورغان هابرماس"؟

في الحقيقة هي عبارة عن مقولات بالية أثبتت فشلها بدليل الحروب المتطاحنة في العالم على العموم هذه النظرية في تطوير الحداثة تقوم على: الطيبة، الخيرة، التحاور، الأخلاقية ... مقابل دهاء ووحشية الأنظمة الرأسمالية، ومعايير **العولمة**[7]، الأمر الذي جعل هذه الفلسفة تعجز على معالجة: تسليع الإنسان، السيطرة السياسية، الهيمنة الاقتصادية لنتاج الرأسمالية الحروب المتطاحنة في العالم، ونظريات الصراع الثقافي والحضاري بين الشعوب، أين يذهب "هنتيغتن" أن المجتمعات الإنسانية في حقيقة الأمر ما هي إلا مجتمعات صراعية أشهرها الصراع بين المجتمع الشرقي والمجتمع الغربي، بالتحديد بين أوروبا والإسلام، ويعترف أن أوروبا وصلت إلى أوج التطور، إلا أن قراءته الاسشرافية تقتضي في نهاية الأمر بأن الإسلام سيعود من جديد

وأنه هناك تخوف من عودة الحضارة العربية الإسلامية، ثم يأتي صديقه "فرانسيس فوكو ياما" ليصرح بأنه لا يوافقه في الرأي؛ ذلك أنه لا مجال لعودة الحضارة العربية، وأنّ المجتمعات الغربية قد وصلت إلى قمة الارتقاء، التي توافق فكرة الألماني "هيغل" في قوله بأن الشرق قد أبصرت نوراً عظيما أعماها على رؤية بقية الطريق لمواصلة تطورها، في المقابل سعت أوروبا على إكماله رغم الصعوبات لتصل هي إلى نهاية التاريخ.

لما كان العقل محور الاشتغال في ذلك المشروع الحداثي الغربي، كان الإنسان وكانت الذات الإنسانية التي اتحدت مع ضرورة الحقيقة المطلقة لمعالجة وجود الوجود في كافة ميادين العمل والفكر، ولكن أليست كلّ هذه الأسس هي التي دعا إليها الدين الإسلامي وأسس لها الميثاق العالمي القرآن الكريم؟

إن الحداثة التي عملت على إبراز فعالية الميتافيزيقيا ودواعيها ضمن المنظومة الفكرية في المعرفة وفي التاريخ، لمركزة المركزيات لم تسلم من الانتقادات.

يرى الفيلسوف الفرنسي "جاك ديريدا" Jacques Derrida من خلال عمله في النظرية التفكيكية "أنّ النص الميتافيزيقي الحداثي هو تركيبة لغوية تعارض نفسها من الداخل، الأمر الذي يجعلها قابلة لتفسيرات لا نهاية لها؛ بسبب الفجوات الداخلية، فبها تقع في أزمة المعنى (...) من خلال تفكيكة للقوى المتصارعة داخل عقل اليقينيات والحقائق المطلقة"[8] فينطلق في تأسيسه "لنظرية الكتابة من مسلمة بسيطة وهامة وهي أن الكتابة هي الأسبق من الكلام لأن الإنسانية ذاتها عرفت أشكالا متعددة من الكتابات (الأولية) قبل أن تبلغ مرحلة الأقوال المنطوقة، وأن هذا المفهوم (أي الكتابة) يتجاوز مفهوم اللغة ويتضمنه"[9].

عبر كتابه الموسوم بـ "علم الكتابة"حاول طرح إشكالية علاقة الكتابة بالكلام وأيهما أكثر تأثيرا في الآخر؟، ليصل في نهاية أبحاثة إلى أن مفهومي الكتابة والكلام قد شكلتهما واشترطتهما وتحكمت بهما الميتافيزيقيا، والحق أن التمركز حول العقل وهو تمركز حول الصوت وهذا الصوت هو أقرب ما يكون إلى الواقع المتعالي، فعمدت بذلك الحداثة إلى أسبقية الكلام على الكتابة؛ حتى لا تتعرض لانتقادات حول ما هو مدون كتابة أي موثق، إلا أن في حقيقة

الأمر هي فعل متأصل في الحياة الإنسان، له أسسه وقواعده وبنيته الخاصة منذ قديم الزمان فقد عرف العديد من الأشكال الكتابية البدائية قبل الأقوال المنطوقة، وعليه فاللفظ يكون جزئية لاحقة له، وأشار أن الكتابة الفلسفية هي عبارة عن وصف يختزل أبعاد الواقع الثقافي والسياسي والاجتماعي، وأما الكتابة الواقعية فهي رهينة الضبابية وعدم الدقة بسبب تداخل مجالها المعرفي، إذن هي كتابات ساذجة تعبر عن السجال الإيديولوجي، فلابد من خلق كتابة تبتعد عن هذه الكتابات إلى نمط جديد يدعى بالكتابة المتدفقة، التي تضع الإنسان ضمن تفاعلاته الفكرية، الاجتماعية والسياسية، وترصد رصيدا لغويا جديدا يتجاوز كل ما يفقدها روحها وحيويتها، وعليه مجاوزة الميتافيزيقيا تستدعي هذه الكتابة الجديدة التي تتعدى الكلام وتؤسس مرجعية جديدة تعمل على التمسك بالنص، فالخطاب يتجدد باستمرار ولا يموت المؤلف، ولهذا ضرورة أسبقية الكتابة حتى تفنى بغياب مؤلفها.

إنّ "محاولة تفكيكها و مجاوزتها لا تعني إطلاقا استبدال حقيقة بأخرى أو نفيها، ولكنها تعني ببساطة تغيير نظرتنا إليها، واستبدال السؤال التقليدي حول قول الحقيقة إلى السؤال عن مفعولات الحقيقة في الأقوال"[10].

المجاوزة لا تعني بالضرورة الاحتقار أو مهاجمة الميتافيزيقيا، بل إظهار أن حضورها أمام الذات كان مجرد وهم وإنما الحقيقة هي حقيقة تولد في حيز مكاني وبعد زماني معين، ويكون هذا عن طريق استبدال التصور الأرسطي بالتصور الكانطي؛ الذي يقضي الأول بأنّ الميتافيزيقيا ميل طبيعي في الإنسان، أما الثاني فيرى أنها علم دقيق، وبها عمد فوكو إلى تقويض تميزها بين البعد النظري والبعد العلمي للمعرفة، بعد تأكيده أن موضوعاتها التقليدية قد اهترأت بمكوناتها المتجسدة في الوعي المهيمن، الإرادي، النزعات السيكولوجية، إضافة إلى تناقض وغموض نصوصها، أين صار من الصعب الوصول إلى معرفة جديدة وفقا لهذا النموذج، ذلك أنّ المعرفة ليست نتاجا لذات عاقلة وواعية، بل هي نتاج لجملة من العلائق والنظم. كان هذا كله استناداً إلى المنهج التفكيكي لـ"جاك ديريدا" Jacques Derrida ومشروعه الأركيولوجي وكذا المفهوم الإبستيمي[11] لـ"ميشال فوكو" المنطلقة من إعادة فحص الآلة التي تعتمد عليها الميتافيزيقيا المتمثلة في العقل. ثم عندما أعلنت الحداثة عن قيمة العقل؛ ما هو ذلك العقل؟

يشترك "أغلبية النقاد في الهجوم على العقل الأدائي الحداثي بوصفه عقلا عاجزا وأداة معرقلة لفهم الواقع و إدراك الحقيقة".

ظهر مفهوم العقل الأداتي في العديد من مؤلفات الفلاسفة والمفكرين الحداثيين، كلهم يجمعون على أنه هو منطق التفكير وأسلوب في الرؤية العامة، أي أنّ العالم الاجتماعي أصبح له طبيعة ثابتة من خلال هذا العقل المهيمن على المجتمعات الرأسمالية الحديثة، الذي فقد فيها العقل دوره كملكة فردية فكرية، وتم تقليصه إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، دون التساؤل عن ماهية مضمون هذه الغايات إذا ما كانت لاإنسانية معادية للإنسان، وينظر للإنسان باعتباره جزءا يشبه الأجزاء المادية أي العمل على تشيئته، وتفتيت/تجزئة الواقع. عمد الكاتب "ثيودورنو أدرنو" في كتابه "من النقد إلى الاستطيقا" تغطية مجمل مناحي الفكر في نقد العقل الأداتي الذي أفرزته فلسفة الأنوار.

نقد العقل الغربي يستدعي بالضرورة الكشف عن حقيقة اللاعقل، التي تحيلنا إلى نقد إشكالية الجنون التي تؤدي إلى اللاشعور وجل القضايا المخفية أبرزها: الجنس، المرض، السجن...

أما عن مركزة النزعة الإنسانية فقد تعرضت هي بدورها للنقد والمساءلة انطلاقا من ارتباطها بالعقل، التي يشتغل فيها "مارتن هايدجر" Martin Heidegger من مشروعه الكامل "نقد الميتافيزيقيا وهدمها" أنه "لابدّ من إعادة النظر في إنسانية الإنسان الإنساني إلى نداء الوجود وتجاوز التقنية"[(12)].

وعليه هو عقل تقني جعل من الإنسان ذاتا منشغلة بالأهداف المردودية والنفعية، الإنسان بلا جوهر، بلا مبدأ، إنسان فارغ المحتوى، وبالتالي كان لابد من إعادة النظر في إنسانية الإنسان وعقلانية العقل بالتركيز على الوجود وتجاوز الموجود والتقنية عن طريق إلاء الأهمية للمفاهيم الوجودية، فداخل ذلك العقل عقل الحقائق المطلقة واليقينيات هناك قوي لا يقينية.

تلك الانتقادات الموجهة للمشروع الحداثي كان لزاما على أحد الأقطاب المؤسسة للحداثة أن يمعن النظر جيدا وأن يراجع الحسابات ويعيد التأمل والتأويل، ليرفع شعار الحداثة مشروع معطوب "هي مشروع لم يكتمل" على حدّ تعبير "هابرماس" Habermas، ولما كانت كذلك

كان لابد من مساءلة الشرعية له، انطلاقا من التأسيس لمشروع آخر، لا يمكن أن نعده بديلا عن المشروع السابق وإنما هو مواصلة له، قائم على الجرأة النقدية في تناول الأطروحات الفكرية.

ثانيا. ما بعد الحداثة ومركزة الهامش

لقد تشكل تيار ما بعد الحداثة "من كونه يجمع بين أساليب مختلفة في العمل الفني الواحد و كونه يهشم عالم التجربة اليومية ليعيد تركيبه في توليفات غير متوقعة، وكونه يقوم على المفارقة والغموض وانعدام اليقين، إنّ كل هاته الخصائص ربما تدل على ميلاد أشكال جمالية جديدة بقدر ما تعيد تشغيل تقنيات الحداثة واستراتجياتها لتدخل في سياق ثقافي متبدل"[13]. ويذهب "محمد بكاي" إلى أنها "نشأت على أرض الشك في المعرفة الموضوعية والحقيقة العلمية، لتلامس نتائج عدم وجود اليقين بشأن إمكانياتها وصلاحيتها للعمل الإنساني في العالم"[14].

قامت جلّ أعمال ما بعد الحداثيين على تقويض الفكر الغربي، وتحطيم أقاليمه المركزية عن طريق: التشتيت، التمزيق، التفكيك، التأجيل، الخلخلة، اللاإستقرار، التشكيك، الارتجاج... وكذا تهميش كل المقولات والمتعاليات التي أعلتها الحداثة الغربية، لتحل محلها مركزيات جديدة مع استجواب المفاهيم الديكارتية التي انتشرت سابقاً من: الحقيقة، الذات، المعرفة، الإنسان الميتافيزيقيا، التاريخ، الحضور، النظام ...، بمساءلة الثبات الذي انتهى إليه العقل الإنساني والعمل على عقل مضاد للهيمنة والمركزية، يهتم بالأطراف والهوامش، والانتقال من الشعور إلى اللاشعور، ومن الوعي إلى اللاوعي، ومن العقل إلى اللاعقل، وإحلال الاختلاف محل الأصل والتبعثر محل التمركز، وكذا الغياب محل الحضور، والفوضى محل الهرمية، بإضافة إلى "الحديث عن التعددية الثقافية التي تسمح لكل الثقافات والنظريات الأخرى أن تكون عنصراً فعالاً وإيجابياً"[15].

تزيح مركزية الذكورة البيضاء الغربية وتستبدلها باللاذكورية النسوية، وكل العناصر البشرية التي ليست بيضاء وإنما سوداء، وأن تدخل كل ما هو خارج عن التيار الرسمي المؤسساتي وفكفكة الاستعمار والاستشراق، بإشاعتها لنظام الأقليات الصراعي: المرأة، الشواذ، البدينين الإنسان المتمرد ...، من خلال التأكيد من أنه هناك اختلافات جنسية أنطولوجية، بمعنى أن الشيء يأخذ هويته من الإرجاء والتغييرات المستمرة، أي الهوية في اللحظة الآنية ليست هي قبل حين وليست هي بعد حين، عن طريق روادها:

1. فريدريك نيتشه Friedrich Nietzsche وموت المتعاليات:

عمل "فريدريك نيتشه" على تدشين حركة انهيار ركائز الفكر الحديث الحداثي، باعتباره فيلسوف النقد والتهديم، انطلاقا من فكرة أنّ الإله شيء يبعث على الشفقة، تواصل النقد النتشوي على إعلان الحرب على الفلاسفة بأنهم أناس يريدون الابتعاد عن الدنيا وكل تكاليف الحياة، يريدون عيشا مريحا، ينتجون الأفكار وهم في أماكن بعيدة، ويتصنعون التقشف والزهد فقط من أجل إنتاج هذه الأفكار. كما اندلق كذلك على الفنانين[16]؛ يقول أنهم ليسوا سوى عبيد للفلاسفة وعبيدا لرجال الدين عموما، لا يؤمنون بالاستقلالية، وأنهم دائما ذيل تابع لذلك لا يمكن الاعتداد بهم، ثم امتدت حربه على رجال الدين.

لقد "أصيب العديد من المفكرين بعدوى فلسفة "نيتشه" فظهرت أفكاره بشكل جلي في كتاباتهم، من بينهم: "ميشال فوكو"، "جان–فرانسوا ليوطار"، "جاك ديريدا"، "جيل دولوز" "مارتن هايدجر"...، وغيرهم"[17].

يرى "نيتشه" أن الإنسان لا يجد الحقيقة مصادفة؛ إنما عليه أن يبحث عنها، لذلك حاول من خلال مؤلفاته أن يطرح أفكار جريئة وصادمة يدعو بها إلى البحث واتباع منحى جديد في القراءة؛ يقوم على التروي والحكمة أسماه بالاجترار[18]، هذه الأفكار تأثر بها العديد من المفكرين وبرزت في أعمالهم الموجهة بشكل مباشر نحو نقد الحضارة الأوروبية الغربية وعقلانيتها فعارضوا موضوع الدولة التي جعلت الناس يخافون وموضوع النظام؛ كونه قائما على مجموعة من المسلمات غير القابلة للمناقشة، وهو الأمر الذي رفضه "نيتشه" الذي يقر بضرورة مساءلة هذه المسلمات والخروج من قيد النظام الواحد، أين كان مع تنحية وزوال منظومة القيم الأخلاقية البرجوازية الموجودة، وإعادة النظر في حقيقتها لتأهيل قيم جديدة؛ هذا كله كان عبر استجواب المفاهيم الحداثية الديكارتية.

يذهب "نيتشه" في كتابه "هكذا تكلم زرادشت" إلى أنّ "الباحث عن الحقيقة لن يجد له من سند في مسعاه الفكري المستقل لا في "هيغل" ولا في "كانط" ولا في "أفلاطون" ولا في "ماركس"، بل في "نيتشه" و"نيتشه" فقط"[19].

المعروف أن "نيتشه" قد تأثر بأستاذه "شوبنهاور" Schopenhauer الذي يدعو إلى العدمية والتشاؤم ...، إلا أن ما صدمه في هذا الفيلسوف هو قوله بأن الأنانية ليست من أخلاق الإنسان وعليه أن يتجرد من صفة حب الذات، هنا اندلق "نيتشه" ذلك أنه في معظم مؤلفاته ضمن التوطئة يشيد ويمدح كثيرا أعماله، ويقول بِأنه ليس أي أحد قادر على أن يفهم آراءه ويدرك ما يكتب فهو داعية للنرجسية الأنانية والاعتداد بنفسه، لهذا جرحه كثيرا نقد "شوبنهاور" للأنانية. وبهذا البيان يثور على كلّ الإيديولوجيات الفلسفية، ليتدرج فيما بعد إلى منظومة القيم ويقول: "نحن بحاجة إلى نقد القيم الأخلاقية، يجب أن نصل إلى وضع قيمة هذه القيم موضع التساؤل"[20] يبدأ هجومه على الأخلاق كلها ليعيد النظر في جل نظرياتها التي تفرض على الشخص طريقة التصرف، فيرى أنها تتسم بالخطأ والوهم، ليطرح في ذلك أسئلة مختلفة لضرورة معرفة الشروط والظروف والأسباب التي أدت إلى نشأتها وتطورها فيما إذا كانت عبارة عن سوء فهم أو نتيجة حادث أو رياء أو حتى مجرد قناع، إذ يعتبر أن "فكرة "داروين" عن النزاع من أجل البقاء فكرة قاصرة على نحو ما، ويرى نفسه خصما للداروينية"[21].

ذلك أنّ الأخلاق السائدة نتيجة التطور الذي أتى على فكرة النظرة الدارونية، التي يرى أنها قائمة على التكيف والضغط الخارجي، وكذا البحث عن ضرورة إرادة الوجود، والأجدر بالنسبة له هو البحث عن إرادة القوة كونها أقوى من كل هذه الضغوطات وأنّ الإنسان هو من يعمل على خلق هذا الضغط و ليس العكس.

يصرح أنّ كتابه "هكذا تكلم زرادشت" أفضل مؤلف له في حياته باعتباره الوعاء الحامل لجل أفكاره عن الحياة، التي ضمنها فيه في شكل نبوءات، بداية من نبوءة موت الإله، فيقول "زرادشت" عندما ينفرد بنفسه بعد المحاورة التي جرت بينه وبين العجوز في الغابة :"أيعقل هذا؟ هذا القديس العجوز لم يسمع هنا في الغابة بعد أن الإله قد مات"[22].

يعلن بشكل صريح ومباشر عن موت الإله. لكن يبقى التساؤل من الإله الذي أعلن "زرادشت نيتشه" عن موته؟

إن الإله الذي قصده حسب "هايدجر" "ما هو إلا رمز لعالم المثل والمثل العليا، المفارقة لعالم الحس، أي رمز لعالم القيم، ذلك أنّ الإله هو الأساس فالغاية النهائية لهذه المثل العليا التي هي بدورها غاية الحياة الدنيا (...) أي العالم السماوي، عالم الماوراء هذا العالم يؤلف منذ "أفلاطون""[23].

قام "نيتشه" بالإشارة إلى أنه هناك تسلسل بين كل من الفكر الأفلاطوني والفكر المسيحي، ذلك أنه في فترة "أفلاطون" اليونان كانت متعددة الديانات وهو بدوره ترك لهم تأثيرا يتأسس على مبدأ الثنائية؛ أنّ هناك حقيقة تتمثل في حقيقتنا الواقعية، وأنه هناك حقيقة ثانية تفوت إدراكنا تعرف بالحقيقة العليا والمتفوقة، انطلقوا منه في تكوين الفكر المسيحي ضمن الديانة المسيحية، فهناك تفريق واضح بين العالم الدنيوي عالم؛ عالم المادة والجسد والحس الذي نواجه فيه شر الشيطان والعالم الماورائي الذي لا يخضع لقيود المادة والجسد والذي نطمح للوصول إليه.

"نيتشه" يعتقد أن التفريق بين العوالم هو مرض الحضارة وهو الأزمة التي ستؤدي بالإنسان إلى الضياع والعدمية لعدم رضاه بواقعه الحقيقي المادي، في أثناء بحثه عن العالم الماورائي، وهذا الأخير بالنسبة هو عبارة عن وهم ولا وجود له ولا حقيقة له، وعليه الإله لديه هو هذا العالم المتسامي عالم المثاليات والمتعاليات والمطلقات والمسلمات التي لا تقبل الاستجواب؛ إذن الدعوة إلى موت الإله هي الدعوة إلى موت عالم الميتافيزيقيا التي تمثل جوهرا أساسيا من جواهر الفلسفة الحداثة.

موت الإله سيخلق النبوءة الثانية للإنسان الأعلى التي تفضي بفكرة علاء الإنسان بنفسه وتجاوزه لذاته على الدوام، "الإنسان الأعلى مكانه في الأمام، وهو لا يعبر عن توقف حركة النشاط وإنما هو بداية في اتجاه مفعم بالنشاط ومليء بالحركة لا ينتهي (...) الذي تطور ذهنيا وفسيولوجيا إلى حد بعيد، الإنسان الذي بلغ درجة عالية من التحضر، والذي برع في كل الأعمال الجسدية، وهو القادر دوما على كبح جماح نفسه ويحترم ذاته"[24].

كشكل من التأله والتوثن يريد "نيتشه" أن يجعل من الإنسان يخضع نفسه لقالب الإنسان الأعلى؛ الذي يمثل صورة الحياة الحديثة والمستقبل، ذلك أنه عندما يصبح الإنسان حرا حرية مطلقة بدون حدود، يتحرر من كل القيم التقليدية ومعتقداته البالية وحتى أخلاقه البرجوازية التي ارتبطت بميزان الإله، ليصل إلى مكان متفوق وأخير.

تتجلى النبوءة الثالثة في إرادة القوة فيقول فيها: "... لقد تيقنت من وجود إرادة القوة في كل حي، ورأيت الخاضعين أنفسهم يطمحون إلى السيادة، لأن في إرادة الخاضع مبدأ سيادة القوي على الضعيف... وتلك هي اللذة الوحيدة الباقية لها فلا تتخلى عنها... إن الحياة بأسرها نضال ... فويل لكل حي يريد أن يعيش بدون نضال"[25].

الحياة عبارة عن نزال، وما هي إلا رغبة قصوى في التملك والقوة، وحياتنا من إبداعنا لهذا علينا أن نعيد إبداعها من جديد ونضيف عليها رتوشات من خلال إرادة القوة، ذلك أن غياب الإله يُوجد إنساناً خلاقاً يخلق القيم والموازين التي يريد بإرادة كبيرة، ويعطي للإنسانية بعداً جديداً، إذ أنه بمقدار شعورنا بالحياة وبالقوة نستطيع أن نحدد الوجود ونطور من رغبتنا في الاقتناء المضاعف.

لكي تتحقق هذه الرغبة لابد من أن تكون هناك مقاومة كشرط دائم، فهذه الإرادة لا تظهر للعلن إلا عن طريق الكفاح، والفهم الجيد للعلاقة بين السيد والمسود التي تهدف إلى تغيير موازين القوة ليصح السيد هو العبد ويصبح العبد هو السيد. فلما زادت شدة الخصومة زادت قيمة الحياة في الذات الفردية أصبح إرادة القوة ثروة كبيرة لابد منها.

تظهر بذلك النبوءة الأخيرة العود الأبدي الناتجة عن الإنسان الأعلى وثنائية العبد والسيد، والعبد عند فيلسوفنا هو ذلك الإنسان الضعيف المغلوب عن أمره يعتمد على أدب الضعف بتضمينه شعارات الإنسانية الزائفة: المساواة، العدل، الأخوة، المحبة ...، تخفي وراءها ضغائن كامنة، تفضح عن حقيقتها يبلغ العبد السيادة.

يذهب "نيتشه" في كتابه "جينيالوجيا الأخلاق" إلى أنّ "الإحساس بالتمييز وبالفارق هو الإحساس الشامل الجوهري الدائم والمهيمن الذي تشعر به فئة أعلى، فئة حاكمة، تجاه فئة أدنى، تجاه من هم في الحضيض هو أصل التضاد بين القبيح والحسن"[26].

المعروف على حسب نظرية الأخلاق أن المسحوقون عندما يرون شخصا يحسن إليهم يمتدحونه؛ وهذا الامتداح على مر التاريخ هو الذي أسس للأخلاق، إلا أنّ "نيتشه" يرى عكس ذلك ففي الحقيقة أن الأخلاق قيمتها لم تأت من الطبقة المسحوقة التي يسميها العبيد وإنما جاءت من النبلاء، فهم وحدهم من لهم الحق في تصنيف الأخلاق وتقييمها، فهي فعل سلطة يصدر عن الحاكمين، بما هو صالح وما هو شرير.

اندلاقه على منظومة الأخلاق على منظومة الأخلاق أدى به إلى إعادة النظر فيها، ذلك أن "العجز أي عدم القدرة على رد الضربة بمثلها يصير [طيبة]، والسفالة والجبانة تصير [تواضعاً] والخضوع لمن يكرهونهم [طاعة]، والجانب المسالم لدى الرجل الضعيف أي جبنه الذي يشكل غناه، وعادة الانتظار قبل المقابلة عند الباب، هذا التجبن يتجمل باسم رنان هو [الصبر]، وأحيانا يسمى [فضيلة]، والعجز عن الانتقام يصير [ترفعاً] عن الانتقام، بل وأحيانا يعتبرونه [صفحاً] عن الإساءة"[27].

اعتمد "نيتشه" في تحليلاته بدل تحليل الفكرة مستقلة، يذهب إلى تحليل المكان والأصل الذي أتت منه، بمعنى أصل الأخلاق التي كونت هذه الفكرة، ذلك أنه انطلاقا من الجسد يمكن تحديد الأخلاق، وانطلاقا من الأخلاق يمكن تحديد الثقافة بمعنى الأفكار، هذا يعني أن الشخص الذي يمتلك بنية جسدية ضعيفة تكون له أخلاق ضعيفة وعندما تكون له أخلاق ضعيفة ينتج أفكارا ضعيفة بمعنى أفكار الضعفاء.

هذا الإنسان الضعيف يعمل على خلق قيم تقوم على نظام الثنائية التي تعبر عن أخلاق الاستياء، أن القوي ليس له الحق في استعمال القوة ضدّ الضعيف وأنه من الخطأ أن تكون أنانياً، وهي الأخلاق التي تدعم الشعور بالذنب والخطيئة وإنكار الحياة، فهي تهتم بلآخرين ولا تهتم بنفسها، وبالتالي تبرز الخسارة وفقدان القوة والحيوية في الرغبة في الانتقام ورغبة تحكم الضعيف وإدانة الأقوياء بسبب عجزه.

مقابل هؤلاء الضعفاء والعبيد نجد أخلاق الأقوياء التي تعمل على تأكيد الذات؛ فالحياة بالنسبة لهم هي إرادة القوة التي تحرك العالم، وهي الإرادة التي تظهر قوتها في الحياة وفي الإنسان وهي ليست بالمعنى السلبي؛ الذي له علاقة بالسلطة والهيمنة على الأخر، فهذه الأخيرة تقرّ بطريقة غير مباشرة بقيمة المسود وتعطيه أهمية لا يستحقها، فالسيد يحقق سيادته من خلال العبد. والقوة الحقيقية هي قوة تتميز بنوع من الأنانية ليس لها أي غاية في السيطرة على الضعيف، فهي لا تتساءل حتى عن قيمته وتذكره ببساطة تكتفي فقط بوجوده في الحياة.

أخيرا يمكن القول أن تربة "نيتشه" قد تجاوزت الحاضنة الغربية إلى الحاضنة العربية، أين تمثلت في بعض الرواد العرب من بينهم: "فرح أنطون"، "مالك بن نبي"، "عبد الرحمان بدوي" "سلامة موسى" ...، فاعتبروه باب القوة والحماسة من أجل قيادة الإنسانية من جديد وبناء حضارة أقوى.

2. سيجموند فرويد sigmund freud من سلطة الشعور إلى سلطة اللاشعور:

استند العديد من النقاد في تعاملهم مع النصوص والإعلام وكذا الثقافة الشعبية، على مختلف الأفكار التي كان قد أتى على ذكرها مفكرو التحليل النفسي من بينهم "سيجموند فرويد" الذي عمد إلى تأكيد أن منهج التحليل يقوم على أساسين الأول: التمييز بين الكيفيات النفسية المتمثلة في ما قبل الشعور، الشعور، ما بعد الشعور، أما الثاني فهو: تحديد العمليات النفسية وهي: الهو، الأنا، الأنا المثالية.

هذا الافتراض الطوبغرافي من قاموس الطب النفسي يظهر أكثر وضوحاً من خلال الجرح النرجسي كونه "أثر نفسي أو انخفاض في درجات النرجسية، ناتج عن جراء تعرض الشخص إلى صدمة نفسية لعدم إشباع رغبة وهدف ما مؤثر على شخصيته، بحيث يتولد عنه الاكتئاب والإحباط وفقدان الثقة بالنفس"[28].

"فرويد" هو أول من تحدث عن مصطلح النرجسية التي عنى بها عشق وحب الذات، وهي عبارة عن حالة نفسية، تتطلب إشباعاً فورياً في بدايات مراحل النمو من حياة الفرد، لتتحول فيما بعد إلى مرحلة أخرى وهي حب الآخر، إلا أنه إذا تعرض هذا الفرد في حياته إلى حادث من شأنه أن يحدث تروما[29] على إثر صدمة نفسية ما، في مرحلة الإشباع التي قد تؤدي إلى توقفها، يحدث انكفاء وثبات على مرحلة حب الذات.

انطلاقا من هذه النظرية عمد "فرويد" إلى تقويض وتفكيك ميتافيزيقيا الوعي، فلم "يكن من السهل أن يقنع الفلاسفة والعلماء في ذلك الوقت بوجود عقل لا شعوري، (...) ذلك أنه ما كان سائدا بين المفكرين هو أن العقل لا بد أن يكون شعوريا، وأن القول بعقل لا شعوري إنما هو قول مناقض للمنطق"[30].

الأمر الذي عرضه للعديد من الانتقادات والسخرية، أين حاول أن يبرهن صحة نظريته من خلال مختلف الحجج والبراهين، بدءاً من التأويل الذي طرحه للأحلام، الأساطير، الرموز وحتى الاستفهام؛ التي أكدت أن الوعي ليس إلا سطحاً عمقه اللاوعي، كمثل الجبل الجليدي ما ظهر منه يمثل الوعي وما خُفي تحت مستوى الماء يمثل اللاوعي، وهذا الأخير هو نشاط عقلي غير مدرك "المتصل بشكل مباشر مع العملية الجسدية، إذ تتفرغ منه جل النوازع والاندفاعات البشرية، التي تعبر عن رغبات وغرائز عميقة داخل الإنسان، غالبا ما ترتبط بالرغبة الجنسية"[31].

اللاوعي هو عبارة عن الجزء الباطني من العقل الذي لا نشعر به، يقوم بنشاط عقلي غير مدرك، فهو عبارة عن مستقر الغرائز التي يولد الإنسان بها، كنوع من الرغبات المنحرفة والمقنعة التي تريد إشباعاً فورياً، لا تهمها معايير أو قيم المجتمع والضوابط التي تفرضها الأنا العليا (المثالية)، وقد توصل **"فرويد"** إلى أن هذه الاندفاعات اللاعقلانية إنما هي رغبات جنسية مكبوتة، كما صرح أنها تتواجد حتى عند الأطفال لا تقل عن رغبة الرضاعة لديهم في أول حياتهم، الأمر الذي خلق ضجة كبيرة في عصره أدت إلى تناقص شعبيته إلى أقصى الحدود.

ذهب كذلك إلى أنه "كل شيء عفا عنه النسيان، كان مؤلماً على نحو ما، كان مفزعاً أو مستقبحاً أو مخزياً في عرف المريض ذاته، فوضح لنا أن ذلك هو بالذات ما أفضى إلى نسيان تلك الأمور أي عدم بقاءها شعورية"[32].

ارتباط مصطلح اللاوعي بجل الأفكار التي يقوم الإنسان بجهد من أجل نسيانها؛ لأنها غير مناسبة فيعمد إلى نفيها في بؤرة اللاوعي لكي لا تخرج للعلن، قادت المحلل النفسي "فرويد" إلى نظرية الكبت، التي أكدت على وجود عمليات نفسية تجري وراء الشعور، تؤثر فيه وتوجهه وتتحكم في أغلب الأفعال الإنسانية، أي أنّ الكبت هو عبارة عن أفكار تخلق توتراً وقلقاً كبيرا لدى الفرد، تنتقل من العقل الظاهر إلى العقل الباطن، على إثر صراع قوتين ديناميتين الأولى هي الغريزة والثانية هي المقاومة، فينزع مبادئ المتعة من أجل مبادئ الواقعية.

يظن الإنسان أنه نسي الموقف لكن هذا خطأ؛ لأن الفكرة لم تُمسح وإنما هي متواجدة تظهر في شكل: زلات لسان، نسيان الأسماء والمواعيد، طي أو تغيير أماكن الأشياء في أثناء

الحديث لا إراديا، وحتى في صورة أحلام؛ فهذه الأخيرة ليست اعتباطية فقد ألف لها "فرويد" مؤلفاً كاملاً أسماه "تفسير الأحلام".

إذن حياتنا اليومية مليئة بالأفعال اللاشعورية، المهتمة باللذة والألم، تجري وراء الأولى وتهرب من الثانية، والدافع المكبوت الذي أصبح لا شعوريا بوسعه أن يجد مصرفاً عبر طرق ملتوية للوصول إلى الشعور، والأحق ترك الباب مفتوح بينهما من أجل الصحة النفسية للفرد.

من هنا يتضح أن الشيء الفرويدي على حدّ تعبير "جاك لاكان" Jacques Lacan عمل على "إخراج الجنس من مخبئه وتحريره من قيود الضوابط الأخلاقية، القانونية والاجتماعية، واعتبار أصل الإنسان اللاوعي؛ فالدافع العدواني المعارض للحضارة لدى الناس هو أمر طبيعي"[33].

الإنسان في جدل دائم بين رغباته وغرائزه ومتطلبات العالم المحيط به ومحرماته، أدت به إلى معايشة أحداث مؤلمة يجتهد في نسيانها طوال سنوات، ولكنها تبقى مخبئة في الأعماق تحدد وتحرك قدراته، فتتضح ماهية هذا الإنسان بمحاذاة اللاوعي وأن علاقته بالوجود مربوطة بخيوط هذا اللاوعي قد تنقطع في أية لحظة لتنكشف أسراره لا إراديا، فالعقل الواعي ليس الوحيد المتكلف بأفعاله؛ فهو ليس إنسان عقلانياً صرفاً، وإنما هو مزيج بين الوعي واللاوعي.

أخيراً وليس آخراً، نصل إلى أن مشروع الحداثة ارتكز على استخطاطية العقل، إلا أنه أثبت عدم نجاعته وفعاليته في تفسير الحقائق، فاكتشفت الانتقادات النفسية أنه إلى جانب الحياة الشعورية هناك حياة لاشعورية، كأهم هجوم منهجي ضد الأنا الديكارتية الحداثية.

3. كارل ماركس Karl Marx قلب الجدل في الفلسفة الماركسية:

بدأت الإديولوجيا كغيرها من العلوم؛ علماً شارحا للأصول عبر تقييم الأفكار ودراستها بعيدة كلّ البعد عن كل معنى قد يقع في بوتقة الازدراء، ولكنه خضع للصيرورة التاريخ التي حولته إلى منظومة فكرية تحقيرية لتزييف المعنى، أصبحت الأدلجة جريمة يتهم بها أطراف العملية الجدلية، بهذا اجتاحت اهتمام المفكرين و الباحثين في مختلف العلوم بالرغم من حداثتها.

يذهب "عبد الله العروي" إلى أن مفهوم الأدلوجة "دائماً مزدوج فهو في نفس الوقت وصفي نقدي يستلزم دائما مستويين: المستوى التي تقف عنده الأدلوجة حيث نظن أنها

حقيقية مطابقة للواقع، وهو المستوى الذي يقف عنده الباحث لوصف تلك الأدلوجة بوفاء وأمانة، والمستوى الثاني هو الذي يقف عنده الباحث عندما يحكم على الأدلوجة أنها أدلوجة لا تعكس الواقع على وجهه الصحيح"[34].

إذن المستوى الأول من الازدواجية المفهوماتية للايدولوجيا يفضي إلى أنها التعبير الواعي عن مجموعة من المعتقدات التي تملي على الأفراد المعتنقين لها سلوك معين في لحظة وواقع محدد ذلك أنها تمثل دراسة عملية للأفكار أي الأسس التي تتحكم في عملية التفكير والتوجيه نحو حركية معينة، فهي تعمل على إظهار الأفكار بشكل واضح ثم تقييمها من ناحية الصحة أو الخطأ بطريقة موضوعية استنادا على قواعد اللغة والمنطق. وفي ما يخص المستوى الثاني فيقتضي بأنها تسمي الأشياء بغير أسمائها، وتعطي الوقائع المادية أقنعة ضبابية لتزييف الحقائق، وتوهم المضطَهَدين بمعقولية الفعل.

أما خصائص الإديولوجيا بصفة عامة فهي"ذات صفة قيمية خلقية (...) ذات صفة عقائدية (...) حركية (...) واحدة من الأدوات الهامة في عملية الدمج السياسي والثقافي في المجتمع (...) تعتبر واحدة من أدوات الضبط الاجتماعي (...) ومن الأدوات التعبوية والتحريضية"[35].

وعليه هي مجموعة من التصورات المتعلقة بالواقع المنظمة والمنسقة، تعمل على التأثير في تفكير الفرد ذلك أنها تعبر عن مجموعة من القيم الخلقية الإنسانية وكذا المجتمعية، بالإضافة إلى القيم الراسخة السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي لا يطالها التعديل سوى بالحذف أو الزيادة إلا قليلا دون المساس بجوهر ثباتها العقائدي، الذي يتماشى مع أهم الأحداث الواقعة في الزمن الحاضر أو قد تقع مستقبلا، من أجل خلق قواسم مشتركة بين أعضاء المجتمع توحد بها اهتماماتهم واحتياجاتهم، اعتماداً على صفتها المعيارية والتوجيهية لتحركاتهم.

من المفكرين الذين أولو اهتماماً بالايدولوجيا على إثر التكوين العام للمجتمع "حيث يتحدد من بنيتين تحتية وفوقية، الأولى هي البنية الاقتصادية والاجتماعية، والثانية هي البنية السياسية والفكرية"[36].

فالبنية التحتية تمثل الاقتصاد وعلم الاجتماع الذي يتكون من: الطبقات، العمل، وسائل الإنتاج، قوة الإنتاج، السوق ...، والبنية الفوقية فهي بركنيها: الدولة والإديولوجيا بمعنى الفكر والدين والأخلاق.

بداية من الفيلسوف الألماني "هيغل" Hegel الذي "أقر بالنظام الاجتماعي والسياسي الذي حققه البشر على أنه الأساس الذي كان ينبغي أن يتم تحقيق بمعقولية العقل"[37].

يرى "هيغل" أنّ الأبنية الفوقية هي من تأثر في الأبنية التحتية، ومدرسة فرانكفورت عن طريق روادها ومدوناتهم أكدت أنّ أنطولوجيا "هيغل" هي عبارة عن جدلية مثالية ألمانية تسعى إلى تحقيق المعرفة المطلقة، وجلّ طرق التمجيد لا تعني في الحقيقة إلغاء الزمن والتاريخ الحقيقي من أجل بناء تاريخ مثالي للعالم كاملا كما أرادت، فتناقضات وصراعات المجتمعات الطبقية في تواصل مستمرة، والجدلية هذه هي أساس الإديولوجية البرجوازية تعتمده كنموذج لتبرير نظرتها نحو العبودية الاجتماعية.

على هذا النحو بدأ النقد الماركسي للاقتصاد السياسي بالنقد الماركسي لهيغل "اعتبر أنّ الفلسفة القديمة قد انتهت ولكن لم يدع إلى تأسيس فلسفة بديلة، ولقد اعتبر أنّ المطلوب هو الإفادة من "لبها" ولفظ "قشورها" من أجل صياغة "نظرية بديلة" مستندة إلى هذا اللب فتوصل إلى الجدل المادي كمنهجية تسهم في وعي الواقع وتغييره، وبهذا أسس لتحقيق القطيعة"[38].

أراد "كارل ماركس" أن يقوض الفلسفة المثالية التي كانت مسيطرة منذ نشوء الحضارة فدعا إلى تفكيكها وأولى اهتمامه بالأساس المادي للاقتصاد مع المحافظة على لبها الجدلي، الذي يمثل أداة البحث في مختلف ثنايا الواقع بتحولاته ضمن علاقتي الإثبات والنفي اللتان تتمظهران على أرض الواقع عبر: الاقتصاد، الطبقات، الدولة، وحتى الفكر. ومن هنا أتى هذا الفيلسوف وقلب الجدلية التي وضعها أستاذه، فوقف عند الجدلية المادية بوصفها الصيرورة الواقعية بطابعها العمومي المنعكس في الذهن كون الأبنية التحتية هي من تؤثر في الأبنية الفوقية، بناءً على هذا تجرأ على بديهيات العقل الغربي الذي كان جوهراً أساسياً في فلسفة الحداثة، وانتقل إلى أنّ الوجود الإنساني لا يتحقق من خلال الفكر وإنما من خلال المادة "إنّ الاقتصاد والطبقات هما الوجود المشخص للمادة، والقوانين التي تحكمها الوجود المشخص لفعل الجدل فيهما، وفي علاقتها (...) بالدولة والفكر"[39].

يكمن جوهر الماركسية بين الجدل المادي والقانونيات العامة من جهة والإديولوجيا من جهة أخرى باعتبارها المحدد للواقع، وتخصص هذا التيار الماركسي في دراسة العديد من المستويات: الاقتصادية، السياسية، الأدبية، الفلسفية، الاجتماعية،...، ليس هذا فقط بل رصد أهم التفاعلات بينهم على أرض الواقع، فالطابع الجدلي هو نتيجة لهذا التفاعل. إذن ما هي الأفكار التي ظل المجتمع الغربي يتغنى بها؟.

تسعى"الرؤية الماركسية لتأسيس تصور حقيقي للعالم (العقل والتاريخ معاً)"[40].

أرادت أن تنشئ صورة علمية وحقيقية للعالم؛ الذي انقسم إلى شرق منحط وغرب مترفع متعال، هذه الصورة الوهمية التي أنشأها الفكر الغربي الأوروبي، تعكس خطأ في التفكير أو نتيجة لمصلحة ما مستمدة من غياب الملكية الخاصة بالشرق التي تعتبر عنصرا مهما في تحقيق الارتقاء، لابد من تمزيقها.

على هذا الأساس شهد مفهوم الإديولوجيا على يد "كارل ماركس" تطوراً ملحوظاً، إذ قام بإكسابه الصبغة المادية ليصبح تعبيراً يتسم بطابع الزيف "مفهوم يقلب الأشياء رأساً على عقب وأنها الصورة الكاذبة التي يرسمها الناس بهدف تبرير بعض الأوضاع الاجتماعية الخاصة"[41].

وتبعا لذلك تمارس الايدولوجيا نوعاً من التعتيم والهيمنة، أين أصبحت تحمل جل الأعمال الثقافية المتعددة في المجتمع من: القانون، اللغة، الأخلاق، الفلسفة، المنظومة المعرفية العلمية، المواقف الاجتماعية والسياسية، المنتوج الإنساني الفكري ...، التي من شأنها أن تميز الوعي الطبقي لهذا تقدم حججا عميقة تبرر بها مساعي الطبقات الحاكمة بنمط إنتاجهم السائد فهي من تملك وسائل الإنتاج المادي.

استقى "كارل ماركس"جل أفكاره وتوجهاته من أساتذته الفرنسيين الذين درسوا الصراعات البرجوازية الفرنسية ضد الإقطاعيين في القرون الوسطى، وأعاد صياغتها من جديد، فأصبحت الفلسفة الماركسية تعمد إلى إيجاد طريقة يتم من خلالها تطبيق كامل نظريتها في تحليل الثقافة بشكل عام والنصوص الأدبية بشكل خاص إلى جانب الأعمال الإعلامية والشعبية.

خاتمة

وصنا إلى توقيع صفحة النهاية بعد أولى صفحاتها مع بداية عرضنا الذي لا يغدو أن يكون إلا خطوة في مسار البحث، ومن أهم النتائج التي توصلنا إليها في طريق الإجابة على إشكالية البحث:

- إنّ الحداثة هي ثورة كوبرنيكية على كل ماله علاقة بالماضي باعتباره عتيقا، فهي تعمل على مركزة العقل الأداتي والإنسان وكذا الميتافيزيقيا ولكنها لم تسلم من الانتقادات التي أدت إلى فتور نجم أفولها.
- تيار ما بعد الحداثة الذي يمثل حركة تبنت مجموعة من المقاربات الفلسفية عن النص والعالم تدور حول عجز الإنسان عن فهم كل ما حوله وفشل العقل على استيعاب العالم ويأسه من الوصول إلى الحقيقة مع مفكريها كان من أهمهم: نيتشه وفكرته حول الحياة حيث اعتبرها معركة البقاء فيها للأقوى، فأعلن موت الإله واستبدله بالإنسان تزامنا مع الفيلسوف "سيجموند فرويد" الذي اكتشف عدم فعالية ونجاعة العقل الإنساني لارتباطه بالجانب الآخر من حياته النفسية اللاشعورية.
- النظرة الماركسية حول النظرية الاقتصادية التي تعتبر الفنون والثقافة من الأدوات الإيديولوجية للنخب الحاكمة من أجل إعادة برمجة عقول الجماهير بما يساعدها على المحافظة على بقاءها ومنع الثورة.
- لتيارات ما بعد الحداثة خلفيات فكرية تعمل على تجاوز المتعاليات ومركزة الهامش.

هذه أهم النتائج والملاحظات النهائية التي انكشفت لنا من خلال رحلتنا البحثية هذه، لنقول في الختام أيضا إن هناك الكثير من النتائج والملاحظات تضمنها البحث في صلبه عزفنا عن ذكرها تفاديا للتكرار.

الهوامش والإحالات

(1)– آلان تورين، نقد الحداثة، تر: أنور مغيث، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 1997م، ص: 31.

(2)– روح عصر الأنوار هي روح استقلال الفرد والفن من تراتبية وسلطوية الكنيسة. (تزفيطان طودوروف الأدب في خطر، ص: 29).

(3)– طه عبد الرحمان، روح الحداثة. المدجل على تأسيس الحداثة الإسلامية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط1، 2006م، ص: 25.

(4)– ريتشرد هارلندا، ما فوق البنيوية. فلسفة البنيوية وما بعدها، تر: لحسن أحمامة، الحوار، سوريا، ط2 2009م، ص: 108.

(5)– عبد الوهاب المسيري وفتحي التريكي، الحداثة وما بعد الحداثة، الفكر، دمشق (سوريا)، ط1 2003م، ص: 218.

(6)– المرجع نفسه، ص: 217، 216.

(7)– هي أحد سياسات الرأسمالية التي تسعى إلى دمج دول العالم،كما تسعى إلى تشويه ثقافة الشعوب الضعيفة، وتحطيم أساسيات الدول النامية من: الدين، الأخلاق، و المبادئ الخاصة بها.

(8)– محمد بوجنال، الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة. شرط فهم صراعات الألفية الثالثة التنوير، بيروت (لبنان)، (د–ط)، 2019، ص:57–61.

(9)– عمر مهيبل، من النسق إلى الذات. قراءات في الفكر الغربي المعاصر، العربية للعلوم، بيروت (لبنان) ط1، 2007م، ص:82.

(10)– المرجع نفسه، ص: 40.

(11)– الإبستيمي كلمة يعني بها العلم والمعرفة، يسعى ميشال من خلالها إلى فهم تحولات المعرفة في مجال العلوم.

(12)– محمد بوجمال، الفلسفة السياسية للحداثة وما بعد الحداثة، ص: 43–51.

(13)– محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، ما بعد الحداثة تجلياتها وانتقاداتها، توبقال، الدار البيضاء (المغرب)، ط1 ، 2007، ص:5.

(14)– محمد بكاي، أرخبيلات ما بعد الحداثة. رهانات الذات الإنسانية. من سطوة الانغلاق إلى إقرار الانعتاق، مؤمن قريش، بيروت (لبنان)، ط1، 2017م، ص:9.

(15)– عبد الله الغذامي، النقد الثقافي . قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، بيروت (لبنان)، ط3، 2005م، ص: 39–41.

(16)– يتحدث عن **"فاقنر"** لأنه كان صاحبه قبل الاشتباكات الاجتماعية بينهما، يقال أنه أقام علاقة سابقة مع المرأة اليهودية التي ارتبط بها نيتشه فيما بعد، لذلك كان قاسيا جدا عندما انتقد الفنانين في عمومهم.

(17)– رامان سلدن، النظرية الأدبية المعاصرة، تر: جابر عصفور، القباء، القاهرة، (مصر)، (د–ط) 1998م، ص:127.

(18)– الاجترار: من خصائص الأبقار تأكل الطعام ثم بعد فترة تقوم بإرجاعه إلى فمها وتعيد مضغه وهكذا الأفكار؛ فأفكار "نيتشه" يجب التعاطي معها وفق الاجترار.

(19)– فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ت: علي مصباح، منشورات الجمل، بغداد (العراق) 2007م، ص:11.

(20)– فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، تر: محمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء (المغرب) ط2، 2012م، ص: 14.

(21)– صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، المعرفة الجامعية الأزارطية الإسكندرية (مصر)، (د.ط)، 1999م، ص: 204.

(22)– فريدريك نيتشه، هكذا تكلم زرادشت، ص: 39.

(23)– سناء صباح أل خالد، حول فلسفة نيتشه، ص: 69.

(24)– صفاء عبد السلام علي جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريديريش نتشه، ص: 195.

(25)– المرجع نفسه، ص: 278.

(26)– فريدريك نيتشه، جينيالوجيا الأخلاق، ص: 38.

(27)– المرجع نفسه، ص: 21.

(28)– مخطاري هجيرة، الجرح النرجسي عند المرأة العقيم، مذكرة تخرج لنيل شهادة ماستير، جامعة الدكتور الطاهر مولاي، سعيدة (الجزائر)، 2012–2013م، ص:20.

(29)– التروما هي كلمة إغريقية تعني الجرح.

(30)– سيجموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمان نجاتي، الشروق، بيروت (لبنان)، ط4، 1982م، ص: 13.

(31)– إسماعيل مهنانة، الوجود والحداثة. هيدغر في مناظرة العقل الحديث، منشورات الاختلاف، الجزائر (الجزائر)، ط1، 2014م، ص:165– 168.

(32)– سيجموند فرويد، حياتي والتحليل النفسي، تر: مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، المعارف الإسكندرية (مصر)، 1994م، ص:49.

(33)– سهيل عروسي، الحداثة من الإديولوجيا إلى المعرفة، ص: 51،52.

(34)– عبد الله العروي، مفهوم الايدولوجيا، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء (المغرب)، ط8، 2012م ص:12.

(35)– محمود علي وحنان خمش، العلاقات الدولية والإديولوجيا. مقاربة ماركسية، مجلة الفكر، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، ع:10، ص: 78.

(36)– سلامة كيلة، من هيغل إلى ماركس. موضوعات في الجدل المادي، التنوير، (د.ط)، 2009، ص: 67.

(37)– فيل سلتير، مدرسة فرانكفورت. نشأتها ومغزاها. وجهة نظر ماركسية، تر: خليل كلفت، المجلس الأعلى الثقافة، الدار البيضاء (المغرب)، (د.ط)، 2000م، ص: 55.

(38)– سلامة كيلة، من هيغل إلى ماركس، ص: 103.

(39)– المرجع نفسه، ص: 72.

(40)– المرجع نفسه، ص : 93.

(41)– وسيلة يعيش خزار، الإديولوجيا في الفكر الغربي بين تنوع الرؤى وتعدد الدلالات، مجلة الآداب جامعة الشارقة، ع: 130، أيلول 2019م، ص: 370.